تنمية مدارك الطفل

غاية التربية والتعليم أن تعين على النمو : فالروح تنمو باستخدام مداركها ، والمدارك تنمو بمزاولتها فهماً وتعبيراً ، وهذه مظاهر ترتبط بعضها ببعض لا انفصام لها . إن قوام النمو هو أن يعمل كل عضو لنفسه ؛ أي اذا أريد للطفل أن ينمو في عقله وجسمه فعليه أن يستخدم مداركه إذ أن نسبة استفادة الطفل من جميع مخارج التعبير التي منحه إياها الباري عز وجل تتوقف على مقدار نمو مداركه وسعتها ، فالنمو الذاتي عن طريق التعبير الذاتي هو الأول والآخر في التربية والتعليم وعليه المعوّل ، فعلى المعلم أن يقدم الرغبة والارشاد ، والمادة والكتاب ، ويقف عند هذا الحد ليترك لشخصية الطفل مخرجاً ، ولكن المعلم في مدارسنا في أكثر البلاد العربية يتداخل الى درجة قصوى ، ويظهر تأثيره في كل شيء بحيث يصبح الطفل آلة مسيرة فهو الذي يشرح الدرس ، وهو الذي يكتبه على اللوح الاسود بلا انقطاع ؛ والطالب لا يقدم على عمل ما ، وقد يقوم بعمل ميكانيكي تقليدي ، وبذلك تمحي الصلة بين الادراك والتعبير بسبب تدخل المعلم ، فلا يترك الطالب يسعى لنفسه : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى »

إن خبرتي في التربية والتعليم تمدني بجواب ما يأتي :

إن مصيبة تتعلق بمدارسنا ناشئة عن فقدان الطالب حريته في التعبير ، فلو سئل المعلم لمَ لا تسمح للطالب بأن يعبر بحرية عما يعلم لأجاب : إن ترك الطالب يعبر بحرية ، يعود بنتائج غير مرضية . وهو جواب غير صحيح لأن نظم التربية والتعليم التي يسير عليها المعلم قد عوّدته أن يهتم بالنتائج المحسوسة الظاهرة — تلك النتائج التي تظهر للمدرسة لدى التفتيش أو عند الامتحان بمظهر رائق ، فهو يخشى صولة النظام المتبعة أن تقضي عليه ، اذا ترك تلميذه يتدرج بالتعبير الحر ، لأن أول مصدر النمو في الطفل تكون مقرونة بجهل ، وخطأ

الثابتة ، وتنعم الترتيب ، والمعلم يخشى هذا ، ولا يسأل إلاّ عن الأشياء المرتبة الصحيحة ، كي تتميز بها عن الزائرين . ومن هنا نخلص الى نتيجة ظاهرة تنخر في قواعد مدارسنا وهي أن التفتيش في المدارس لا يجري على الأفراد بل على المجموع قاطبة ، وإن الامتحان في نهاية كل فصل ينظر فيه الى عمل المجموع : فما دام التفتيش وراء المعلم يحصه ، وما دامت الامتحانات تحدق به ، فهو لا جرم يعمل على ارضاء المفتشين ، ويزين لهم نجاح طلابه بالنتائج المموّهة

كلنا يعلم أن المعلم يسعى لا ليؤسس الطفل على قواعد ثابتة ، بل ليبني في عقله بيتاً من المعلومات أوهى من بيت العنكبوت ، في ظاهره زخرف القول ، ابتغاء مرضاة المفتشين ، كأنما الغاية من التربية ارضاء المفتشين ، والنجاح في الامتحان . إن هول الامتحان وشبحه المخيف لا يزايل فكر الطالب — فالامتحان يهدده أنى سار ، فاذا ما عبر الطالب فيه عمّا يخالج نفسه ، جاءت النتائج على غير ما يشتهي المعلم ، فرسب في صفه الحول أو الحولين ظلماً وقسراً وهو ليس بالملوم ، فالامتحانات خطرة وعنيفة وأغلب ما تكون نتائجها ناقصة مضطربة ، والأحرى أن يسمح للطالب أن يعبر عن نفسه بطريق غير الامتحان : فانه إذا لم يسمح له بذلك في بدء حياته الدراسية صعب عليه انتهاج ذلك في باقي حياته . إذا أردنا أن نعين الطفل على النمو ، وجب علينا أن نقدم شيئين بسخاء وكرم وهما : الغذاء والرياضة — فالغذاء ضروري للنمو ، والحاجة الى الرياضة كبيرة وليست بأقل أهمية من ذلك لنموّ الجسم فأطرافنا وأعضاؤنا وحواسنا ومداركنا لا تنمو إلاّ بالرياضة ، وإنها عند ما تصل الى أقصى درجة في النموّ ، لا يتيسر بقاؤها على الكمال الذي وصلت إليه إلاّ بالاستمرار على الرياضة . ولما كانت القدرة على النموّ غير محدودة في المدارك العقلية والروحية ، كانت الرياضة الدائمة ضرورية لها ، ولا يمكن الاستغناء عنها . ففي عهد الطفولة حيث تكون عوامل النموّ والاتساع في أقوى دوعاتها ينجم عن ترك الرياضة عواقب وخيمة ، لا يمكن تقديرها . فاذا حصر طفل صحيح الجسم في سريره حولين من أعوامه الأولى بلا حركة أو درج تضرّر جسمه ، ولا سيما أطرافه ضرراً كبيراً .

وهناك حقيقة أخرى وهي أنه يجب أن يقوم بعمل النموّ الطفلُ نفسه لا غيره ، ولذا

يجب أن يتناول الطفل الغذاء الذي يقدّم إليه بنفسه ، ثم يهضمه بنفسه ، وكذلك نمو أعضائه ومداركه ، فهو وحده الذي يجب أن ينميها لا غيره : فالنموّ هو الشيء الوحيد الذي لا ينوب عنا أحد بالقيام به ، كما لا يأذن كل أحد بالنيابة عن غيره ، لأن مشاهدة الآخرين يأكلون لا تغذي أجسامنا ، كما لا يقوي أطرافنا مشاهدة آخرين يحركون أطرافهم : فالعوامل التي تعمل على نمو الطفل تأتي من الداخل فله — وله وحده — أن ينميها وأن يستعملها ، وأن يظهرها ، وهذا أمرٌ لا ريب فيه ، إلاّ أننا كثيراً ما نغفل عنه ، رغم جلائه ، لأن أشد الأمور اهمالاً أظهرها وأقربها تناولاً .

إن جميع الحقائق التي ذكرتها آنفاً لا يجحدها أحد إلاّ أن الأخذ بها أمرٌ لم يتم بعد ، فيظهر ان نظم التعليم في أكثر الأقطار العربية تتغاضى عن هذه الحقائق ، ولا تقدّرها حق قدرها. لقد كان همّ المعلم ان يقدم للطفل كل شيء ، فهو الذي يغذيه ، وهو الذي يهضم له طعامه ، وهو الذي يأخذ بيده ليتدرّج به على قدر خطاه ، ويمرنه على المشي ، وبهذا يصبح الطفل مسيراً مراقباً ومسيطراً عليه .

يحدد المعلم للطالب كل ما يجب ان يقوله أو يشعر به ، ويحصر له ما يجب أن يفكر به ، أو يكتبه ، أو يعمله فيلقي على سطح عقله شيئاً من المعلومات ، ولا يتركه وشأنه لحظة واحدة يفكر فيها منفرداً أو يدرس فيها أو يلجأ فيها الى كتاب يسترشده ، ليكتب ما توحي إليه مداركه ، وهكذا يحول المعلم دون الاستقلال الفكري في الطالب ، فيخرج ضعيفاً في المدارك التي يستولي بها الانسان على العالم ، ويعيش حياته كلاً على مولاه الأستاذ الذي قضى على شخصيته ، فطرحه في هذا العالم آلة معطلة لا يعرف للحياة معنىً ، ولا يفقه معنى السعادة من أين وكيف جاء هذا الفهم المغلوط في غاية التربية والتعليم في مدارسنا ؟

لنسأل أنفسنا ما هي المدارك التي تنميها مدارسنا ؟ إن نظرة واحدة إلى جدول الدروس تبين لنا قسمين من العوامل : فالقسم الأول يسمى الإدراك ، والقسم الثاني يسمى التعبير ، فحيثما تعلم الدروس من التاريخ والجغرافيا والعلوم الحديثة تكون الغاية تنمية مدارك الطفل المتلقية ، وحيثما تعلم دروس الأشياء والرسم والغناء تكون الغاية تدريب قوى الطفل المعبرة إن المدارك المتلقية هي التي تمكننا من فهم ما يحيط بنا ، وهي ترسم في أنفسنا ، ثم تصبح

ملكاً لنا ، وهي تنقسم قسمين : الأول يختص بالمدارك العقلية التي بها نرى ونلاحظ ونفكر ونتأمل ، وندرك ونفهم ، ونتذكر ونتخيل . والثاني يختص بالمدارك العاطفية ، وهذه قسمان أيضاً . فالقسم الأول : الطرب والثاني الإعجاب .

وتقسم المدارك المعبرة إلى أربعة أقسام بحسب المخارج التي تبرزها ، وللمعلم الحرية التامة في استخدام هذه المخارج وما يشتق منها . فالأول اللغة ، والثاني الحركة الشخصية والثالث العمل اليدوي ، والرابع الفن . ويندرج تحت المخرج الأول تعلم المواضيع مثل الإنشاء ، الخطي والشفوي ، والقراءة الجهرية وتمثيل الروايات . ويشمل المخرج الثاني تعليم المواضيع كالألعاب الرياضية والتمرين العسكري ، ويحتوي المخرج الثالث على تعليم المواضيع كالنجارة والبستنة في مدارس البنين ، والخياطة والطبخ في مدارس البنات ويدخل ضمن المخرج الرابع تعليم المواضيع كالرسم والتصوير والموسيقى . بقي علينا أن نسأل أنفسنا ما هي الصلة بين المدارك العقلية والمدارك المعبرة ؟ وهل من الممكن أن ننمي كلاً منها على حدة ، وهل في الإمكان أن نخصص حصة أسبوعية لتمرين المدارك المعبرة وتلك لرياضة المدارك العقلية وهكذا — لا يخفى ذلك لأن المدارك العقلية والمعبرة لا يمكن اعتبارها وحدتين مستقلتين — فالواحدة متممة للأخرى ، وكل واحدة منهما بمثابة الروح لغيرها ، فإذا انفصلت الواحدة عن مكملتها هلكت وتعطل عملها .

إذا كان الادراك حياً احتاج الى التعبير ، وإذا كان التعبير حياً احتاج الى الادراك وعلى ذلك فانه اذا كان التعبير حياً ناشئاً عن ادراك نفساني كان شعور الطفل بالأشياء حياً حقيقياً . ان عوامل الادراك تنمو في الطفل وتقوى بواسطة التعبير لا بطريقة أخرى ، أما عوامل التعبير فلا تنمو إلا بطريق الادراك . فالطفل الذي يحاول ان يرسم ما يرى ينمو فيه قوة الملاحظة كما انه ينمي قوة التعبير ، وكلما تعددت الأشياء التي تأتي تحت إدراكه أو حسه ازداد علمه ، ومتى ازداد فهماً للأشياء نما عقله وأصبح ذا رأي سديد ، وفكر ثاقب . فالمرء الذي يحاول أن يعبر عن آرائه في مسألة مرتبة اجتماعية كانت أو سياسية ، أو طبيعية أو اقتصادية ، فانه يسعى بهذه المحاولة أن يعبر عن نفسه تعبيراً جلياً ، فيجعل من الاضطراب السائد في نفسه انتظاماً وتنسيقاً . وكلما أكثر من ذلك نما عقله ، وتعمق في الموضوع اتسعت مداركه ، واهتدى الى نواح جديدة لم يكن قد وصل إليها من قبل : فالطفل الذي يحاول أن يرسم ما يرى لا ينكر أن اتصالاً وثيقاً بين الادراك والتعبير ، لأن كلاً منهما يساعد على اظهار الآخر حتى في المواضيع الجافة مثل الرياضيات .

يافا — فلسطين

شكري النشاشيبي